حياة نيتشه

الفكر والحياة

شيء واحد اتفق عليه كل من كتبوا عن نيتشه ، وأكده هو ذاته فى كتاباته . وأعنى به أن فلسفته قد امتزجت بحياته وأصبحت تكوّن قطعة منها ، وأنه يتفلسف بكيانه كله ، وبوجوده الكامل ، ولا يتفلسف نظريًّا ، أو يفكر فى مشاكل تجريدية جامدة فقدت صلتها بالحياة . وهكذا كان نيتشه يمثل نوعاً فريداً من الفلاسفة ، نوعاً يجعل حياته فى هوية مع فكره ، ويقضى على كل حد فاصل بينهما ، ولا يثق بأية مشكلة عقلية لا تسرى مع الحياة فى تيارها ، ولا تنبع من أعماق شخصية من يفكر فيها .

ولسنا ندعى أننا سوف نخرج على هذا الإجماع ، ونقرر أمراً مخالفاً لما شهد به نيتشه ذاته ، وأكده كل الباحثين عنه . غير أننا نود أن نوضح المعنى الحقيقى لهذا الاتفاق بين حياة الفيلسوف وتفكيره ، وأن نستخلص الدلالة الصحيحة لتلك الفلسفة التى تنبع عن الحياة ، وتتقلب معها فى كل ما يطرأ عليها من تغيرات .

ذلك لأن القول بأن فكر الفيلسوف فى هوية مع حياته ، وبأن كل الحدود الفاصلة بينهما قد أزيلت ، هذا القول لا يوضح الأمور كثيراً : فمن الممكن أن تكون حياة الفيلسوف سائرة فى مجراها الطبيعى ، ويكون تفكيره تابعاً لهذه الحياة ، مستمداً كله منها ، ومما اكتسبه من خبرات فيها . ومن الممكن أيضاً أن يكون تفكير الفيلسوف هو الأصل ، وتكون حياته كلها دائرة حول محور هذا التفكير : فى الحالتين تكون حياة الفيلسوف هى وتفكيره شيئاً واحداً ، ولكن شتان ما بين الموقفين .

إن الشخصية الأولى شخصية ذات تجارب زاخرة ، وحياتها مليئة بالخبرات الواقعية التى تزيدها عمقاً على الدوام ، وتظل هذه التجارب والخبرات منطلقة فى طريقها الطبيعى ، لا يعوقها شىء ، ولا يحول بينها وبين الحركة الدائمة حائل ، ومن خلال هذه التجارب الممتلئة المتجددة ، ينمو تفكير الفيلسوف ، وعليها يتغذى كأى كائن حى ، فإذا ما تسنى لك أن تطلع على هذا التفكير مدوناً ، لما وجدته إلا ثمرة لتجارب الفيلسوف التى تُستمد من الحياة التلقائية وتُكتسب من الواقع المتجدد .

أما الشخصية الثانية فهى ضحلة التجارب ، صلتها بالواقع الحسى هزيلة ، وخبرتها بالحياة سطحية ، غير أن هذا الافتقار إلى التجربة الحية يعوضه عندها تجسيم للمشاكل الفكرية إضفاء الحياة عليها . فالمفكر فى هذه الحالة منعزل عن الحياة ، زهداً فيها أو عجزاً عن مجاراتها . ولكنه إذ فقد صلته بما هو حى واقعى ، يخلق حياة جديدة من فكره ، وينفخ فى مشاكله العقلية من روحه ، فإذا بالحياة تنبض فى هذه المشاكل ، وإذا بها كائنات حية يتعامل معها كما لو كان يتعامل مع الأحياء ذاتهم . وهنا أيضاً تكون حياة الفيلسوف وتفكيره شيئاً واحداً ، غير أن الأصل هنا هو الفكر . وما الحياة إلا صفة أضفاها هو على هذا الفكر ، وظل تابع له .

وأحسب أن الناس إذا صادفوا مفكراً يوصف تفكيره بأنه قطعة من حياته ، وبأنهساير هذه الحياة ولم ينفصل عنها ، كان أول ما يتبادر إلى ذهنهم هو المعنى الأول ، وظنوا أنهم إزاء شخصية استمدت فلسفتها من واقع حياتها الزاخر بالتجارب . وهذا بالفعل هو أول ما يطرأ على الأذهان كلما رُددت أمامها هذه العبارة العامة ، القائلة إن فلسفة نيتشه إنما استمدت من حياته ومن وجوده الشخصى . غير أن فى هذا سوء فهم ينبغى أن نحذر الوقوع فيه . فنيتشه فى واقع الأمر فيلسوف من ذلك النمط الآخر ، الذى جعل فكره حيًّا عن طريق إثراء الفكر وبعث روح الحياة فيه ، لا عن طريق إثراء الحياة واستخلاص الفكر من حكمة تجاربها . وهو لم يقف أمام الحياة وجهاً لوجه ، بل وقف

أمام أفكار ومشاكل أحياها ذهنه ، وحلت لديه محل الواقع المباشر الذى نتعامل معه فى تجربتنا الحية. وكانت الفكرة الواحدة لديه قادرة على أن تبعث فيه الغضب والثورة أو الراحة والسرور ، وكل المشاعر التى لا تبعثها فينا عادة إلا المواقف الواقعية الحية .

وهنا نجد أنفسنا إزاء نتيجة غريبة كل الغرابة : ذلك لأن هذا المفكر الذى كان يسخر من كل فيلسوف تجريدى ، ويؤكد أن أحط صور الإنسان وأكثرها تشويهاً هى صورة « الإنسان النظرى » — هكذا المفكر نظرى بدوره ، تجريدى هو الآخر ، وتفكيره إنما هو وجه من أوجه نشاط عقله الخالص . . . ألم نقل إن تجاربه الحية هزيلة ، وإن حياته كلها كانت تدور حول محور الفكر ، الذى هو أساسها ، وهو الذى يعطيها معناها ؟ وماذا يكون الإنسان النظرى ، إن لم يكن إنساناً تتلون حياته بلون مشاكله العقلية ، وتدور كلها حول مركز واحد ، هو الفكر المنفصل عن الواقع ؟ . . .

إن نيتشه قد وجه نقده اللاذع إلى أولئك الذين يتفلسفون بين جدران أربعة ، وعلى كرسى وثير . . . فأين كان يتفلسف هو ؟ ألم يكن أكثر الناس عزلة وتفرداً ؟ ألم تكن حياته كلها تسير فى طريق موحش ، يزداد بعداً عن الناس بالتدريج ؟ ألم يكن يفخر بانطوائه ، وبترفعه ؟ ففى أى شىء يفترق إذن عن تلك العقول التى كانت تنحصر بين أربعة جدران ، وتحيا فى جو مفارق لواقع الناس ؟

تلك هى النتيجة الغريبة التى ينتهى إليها تحليلنا السابق . ولكن أكان نيتشه بحق متناقضاً مع ذاته إلى هذا الحد الصارخ ؟ وهل كان هو الآخر إنساناً نظرياً له نفس الصورة المقيتة التى حمل عليها ونفر منها ؟ الحق أننا لا نهدف إلى إثبات ذلك ، ولا ندعى أن طريقة نيتشه وطريقة كنت Kant فى التفكير تنتميان إلى نمط واحد ، بل إن اختلافهما الأساسى أمر مشاهد لا يحتاج إلى دليل . فكيف نخرج إذن من هذا الموقف المحيِّر ، الذى نرى فيه نيتشه من جهة شبيهاً بالمفكرين النظريين ، لترفعه التام على كل ما ينتمى إلى واقع الناس بسبب ، ونراه من جهة أخرى مختلفاً عن المفكرين النظريين ، بما يضفيه على مشاكله من حركة دائمة وانفعال حى ؟

إن حل الإشكال إنما يكون فى تلك التفرقة التى وضعناها من قبل بين نوعين من التفكير المرتبط بالحياة : نوع يرتبط بالحياة المليئة الزاخرة ، التى تتوالى تجاربها لتكسب التفكير عمقاً مستمداً من خبرة عينية واقعية ، ونوع تنحصر حياته فى مشاكله ذاتها ، ويجسد هذه المشاكل ليجعل منها عناصر كاملة للحياة .

هذا النوع الأخير هو الذى ينتمى إليه نيتشه ، وهو نوع إذا تعمقنا فى تحليله وجدناه يحتل موقعاً وسطاً بين التفكير النظرى الخالص ، والتفكير العينى الحى . فهو نظرى لأن العالم الذى يحيا فيه هو عالم العقل ، ولكنه أيضاً عينى ، لأنه لا يتأمل مشاكله بتلك النظرة الهادئة الباردة التى يتأملها بها المفكر النظرى الخالص ، ولا يشاهد أفكاره كما يشاهد المرء عرضاً مسرحياً لا تربطه بما يجرى فيه أية صلة عميقة . وإذن ، فإن شئت أن تجرى مقارنة بين كنت ونيتشه ، لكان لزاماً عليك أن تنفى عن العلاقة بينهما صفة التضاد الكامل ، إذ هما معاً فيلسوفان يتعاملان مع مشاكل عقلية صرف يستمدان . ولا تفكيرهما من حياة مليئة وتجارب واقعية عميقة . وكل ما فى الأمر هو أن أولهما يتأمل مشاكله بعقل محايد ، ويشاهدها وهو فى موقف المتفرج ، أو الحكم الذى يلاحظ عن بعد دون أن يتدخل فى الصراع ، أما الآخر ، فهو طرف أصيل فى ذلك الصراع ، وهو مندمج فيما يحاول أن يحله من المشاكل على نحو تصبح معه هذه المشاكل هى وحدها قوام حياته . ومن جهة أخرى ، فإذا أجرينا مقارنة بين تفكير نيتشه ، وبين مفكر ينتمى إلى ذلك النمط الآخر ، الذى تُوجه حياته المنطلقة تفكيره وتحل له مشاكله ، لوجدنا أن حياة نيتشه لم تكن هى التى تقود تفكيره ، بل كان تفكيره هو الذى يقود حياته . وبينما يكون فى وسعنا ، فى الحالة الأخرى ، أن نلقى ضوءاً ساطعاً على الفكر إذا درسنا الحياة ، فإننا فى حالة نيتشه نستطيع — على العكس من ذلك — أن نفهم كل تفاصيل الحياة إذا درسنا الفكر .

ومجمل القول إن تلك الهوية القائمة بين الحياة والفكر عند نيتشه ، لا تعنى أن تفكيره يستمد من حياته ، وإنما تعنى أن حياته هى التى تستمد من تفكيره .

هذه الحقيقة الأولى ، التى حرصنا على إيضاحها فى مستهل حديثنا عن حياة

نيتشه ، ترسم لنا المنهج الذى ينبغى أن نتبعه فى دراسة هذه الحياة . فالوقائع الخارجية فى حياة نيتشه قليلة ، وليست لها أهمية خاصة . وأهم وقائع تلك الحياة ترتد فى نهاية الأمر إلى مشاكل فكرية . وعلى ذلك ، فسوف نمر سريعاً بتلك الحوادث الخارجية ، حتى نفسح المجال لبحث المشاكل الحقيقية التى تحكمت فى حياته ، وطبعت فلسفته كلها بطابعها الخاص .

وقائع حياته :

فى أواسط القرن التاسع عشر ، وعلى التحديد فى ١٥ أكتوبر من عام ١٨٤٤ ، ولد نيتشه فى ريكن Rœcken وهى بلدة صغيرة قرب ليبتسج . وأهم ما ينبغى أن نذكره عن أسرته أن أجداده لأبيه ، أعنى عائلة نيتشه ، كان معظمهم من رجال الدين ، وكذلك تنحدر أمه من أسرة إيلر Œhler وهى بدورها أسرة شغل كثير من أفرادها مناصب دينية . وهكذا كان الدين يلعب دوراً أساسياً فى طفولة ذلك الذى أسمى نفسه « عدو المسيح » ، والذى كرس جهد حياته ليوجه إلى الروح الدينية أعنف نقد تعرضت له خلال ألفى عام .

ويبدو أن وفاة أبيه وهو فى سن الخامسة جعلته يرسم له صورة أسطورية ، ويمتدح فيه صفات لا شك أنه لم يلمسها فيه عن كثب ، إذ لا يعقل أن يكون قد حلل شخصية أبيه وهو دون الخامسة ! وعلى أية حال ، فقد عاش نيتشه بعد وفاة أبيه فى بيئة نسائية خالصة ، ولابد أن هذه البيئة لم تكن تروق له ، إذا حكمنا على الأمر فى ضوء حملة نيتشه العنيفة على المرأة فيما بعد .

وفى عام ١٨٥٨ التحق نيتشه بمدرسة بفورتا Pforta ، ثم غادرها إلى جامعة بون Bonn بعد ست سنوات . وعندما انتقل أستاذه فى اللغويات ، ريتشل Ritschl إلى ليبتسج ، تبعه نيتشه إليها . وخلال تلك الفترة بدأ اتجاهه يتبلور فى دراسة اللغويات والآداب الكلاسيكية ، وأخذ ينصرف عن اللاهوت ، بعد أن كان فى الأصل ينتوى التخصص فيه . وظل نيتشه فى الجامعة أربع سنوات ، تخللتها فترة خدمة عسكرية انتهت بحادثة . ومن العجيب أن يُختار

نيتشه . فى نفس العام الذى أنهى فيه دراسته الجامعية ، أستاذاً لفقه اللغة فى جامعة بازل ، بعد توصية من أستاذه ريتشل ، الذى وصفه لدى المسئولين هناك بأنه عبقرى . وهكذا بدأت مرحلة شاذة فى حياة نيتشه ، هى مرحلة الأستاذية الجامعية .

وفى هذه الفترة اهتدى نيتشه إلى مصدرين أساسيين من المصادر التى استقى منها تفكيره ، ودارت فلسفته حولها ، إما بالعرض أو بالنقد ، وأعنى بهما شوبنهور Schopenhauer ، وفاجنر Wagner . أما شوبنهور ، فسوف يتسع المجال لبحث مدى تأثيره فى نيتشه خلال بحث الآراء الفلسفية لهذا الأخير ، وأما فاجنر ، فسوف نفرد له جزءاً خاصاً من هذا العرض لحياة نيتشه .

وحين نشبت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا ، ساهم نيتشه فيها أولا ، فلم يفد منها سوى سلسلة من الأمراض التى انتقلت إليه بالعدوى من الجنود المصابين وظل يقاسى منها طوال حياته . وكان نيتشه فى أول الأمر متحمساً لبنى وطنه ، ولكنه حين أدرك أن الألمان هم الذين بدأوا العدوان ، حمل على هذه الحرب ونتائجها ، وعلى نمو روح التعصب القومى للألمان ، واحتقارهم للفرنسيين ، الذين كان نيتشه دائم الإعجاب بهم .

ولم يكن نيتشه متحمساً حين عاد لمتابعة إلقاء محاضراته فى الجامعة . ذلك لأن محاضراته لم تلق النجاح الكافى ، بل إن أبحاثه الفيلولوجية المختلفة فى تلك الفترة لم تصادف اهتماماً كبيراً ، وكذلك الحال فى أول كتاب له ، وهو « ميلاد المأساة من روح الموسيقى » . وبدأت وطأة الأمراض تشتد عليه ، مما جعله يتوقف فى فترات متقطعة عن العمل بالجامعة .

ويبدو أن نيتشه كان فى هذه الفترة يوفى ديناً لأساتذته ، ففيها كتب عن شوبنهور ، وعن فاجنر ، وعن بعض معاصريه ، فى تلك المجموعة التى أطلق عليها اسم « خواطر فى غير أوانها » ، فضلا عن الكتاب السابق الذى ألفه متأثراً بفاجنر .

على أنه حين بدأ ينقطع عن الجامعة ، ويطوف أرجاء إيطاليا وسويسرا ،

كان قد تجاوز مرحلة التأثر المباشر بشوبنهور وڤاجنر ، وبدأت فترة من التأليف العقلى النقدى ، ظهر فيها تحرره بوضوح ، وبدأ فيها يوجه نقده إلى كل مقومات العصر ، فظهر له كتاب « أمور إنسانية . إنسانية إلى أقصى حد » فى جزأين بدأ الأول فى سنة ١٨٧٦ وانتهى من الثانى فى سنة ١٨٧٩ . وفى العام التالى ، وفى جو ڤينيسيا المتحرر ، كتب نيتشه « الفجر » . ثم بدأت فترة من التأليف الخصب ، ظهر له فيها العلم المرح (١٨٨٢) و « هكذا تكلم زرادشت » (١٨٨٣ — ١٨٨٥) و« بمعزل عن الخير والشر » (١٨٨٥) و« أصل نشأة الأخلاق » (١٨٨٧) . وفى خلال كل ذلك ، كان يعد مواد كتابه الأكبر ، الذى كان ينوى فيه تدوين خلاصة فلسفته بطريقة منهجية منظمة . والذى لم تتح له فرصة إتمامه وتنسيقه ، فنُشر كما تركه ضمن مؤلفاته المختلفة . وأعنى به كتاب « إرادة القوة » (١٨٨٤ — ١٨٨٨) . وحتى العام الأخير من حياته الواعية ، ظل نيتشه يؤلف بغزارة ، فأخرج رسالتين عن ڤاجنر . هما قضية ڤاجنر، ونيتشه ضد ڤاجنر . وانتهى عهده بالتأليف بكتاب « هُوَذا الرجل ! Ecce homo » الذى عرج فيه على شخصيته هو ، فتناولها هى وكتاباته بالتحليل ، وكأنه لم يشأ أن ينتهى من التأليف دون أن يعرض على الناس رأيه فى نفسه .

وعندما وصل تفكيره إلى هذه القمة ، وبلغ فى نقده أقصى الحدود التى يمكن ذهنه أن يبلغها ، لم يقوَ عقله على المضى فى طريقه ، فإذا بأعراض الجنون الحقيقية تظهر عليه . فى ديسمبر سنة ١٨٨٨[1] وصلت منه إلى أصدقائه خطابات بإمضاء « نيتشه — قيصر » . وتلقت كوزيما ، زوجة ڤاجنر ، خطاباً منه يقول فيه « أريان — إننى أحبك — ديونيزوس » (وهو اعتراف سنفسره فيما بعد) . وبينما كان يسير فى شوارع تورين ، شاهد فرساً يضربه صاحبه ضرباً أليماً ، فألقى بنفسه عليه ليحميه ، ثم سقط على الأرض صريع الجنون . وقضى نيتشه ما يقرب من اثنى عشر عاماً فى ڤيمار Weimar بعيداً كل البعد عن

(١) أصيب نيتشه فى عام ١٨٨٩ بنوبة حادة من الشلل الجنونى العام general paralysis of the insane ومن أعراض هذا المرض هذيان العظمة .

عالم العقلاء . إلى أن مات فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٠٠ .

ومن الظواهر المؤسفة أن جنون نيتشه الأخير قد استغل أسوأ استغلال ، فذهب بعض الكتاب إلى أن مؤلفاته كلها تتسم بطابع الجنون ، وأن اللوثة العقلية تظهر فيها كلها – بدرجات مختلفة – منذ البداية . وليس هناك أدنى شك فى أن حياة نيتشه لو لم تكن قد انتهت على هذا النحو ، أعنى لو كانت قد انتهت مثلا بحادثة وقعت له فى عام ١٨٨٨ ، لما خطر هذا الاتهام على بال أحد . ذلك لأن البحث الموضوعى الدقيق لكتابات نيتشه لا يؤدى إلى أى تأييد لهذا الادعاء الباطل . وكل ما فى الأمر هو أن خصائصه النفسية ، التى كانت تنعكس بوضوح على كتاباته ، كانت ذات طابع فريد – ومَنْ من كبار الكتاب أو الفنانين لم يكن له طابع نفسى فريد ؟ إن العزلة القاتلة التى عاش فيها نيتشه قد صبغت أساوبه بصبغة خاصة ، وشعوره بالوحدة قد أضفى على كتاباته نوعاً من الترفع والتعالى ، غير أن هذا كله ليس جنوناً على الإطلاق ، وما هو إلا تعبير عن النمط النفسى الخاص الذى ينتمى إليه نيتشه ، وهو نمط مألوف بين العقلاء ، بل بين الكثيرين من أعمق العقلاء تفكيراً .

والحق أن المرض بوجه عام كان يؤثر دائماً فى نيتشه تأثيراً عكسياً ، أعنى أنه كلما اشتدت عليه وطأة المرض ، كان يدعو إلى إنسانية سليمة صحيحة ، وكانت نغمة الصحة والقوة تزداد وضوحاً فى كتاباته . قد يكون هذا تعويضاً ، ولكنه لا يؤثر مطلقاً فى قوة الدعوة وروعة الهدف ذاته .

بل لقد كان نيتشه يحاول أن يُدخل أمراضه ، حتى أكثرها ارتباطاً بالناحية العضوية ، فى عداد الظواهر الواعية ، ويدرجها ضمن عناصر حياته الشعورية ، فلا يرى المرض « سبباً » لاتجاهات معينة يتبعها فى كتاباته ، بل « نتيجة » لهذه الاتجاهات[1] . ومع اعترافنا بمبالغته فى هذا الحكم المطلق ، فإننا نستطيع أن نجد له مع ذلك مبرراً فيما قلناه من قبل ، من أن حياة نيتشه كلها كانت تدور

---

(١) « هو ذا الرجل » : القسم الأول والثانى من الفصل الأول « لم كنت حكيما إلى هذا الحد ؟ » (انظر قائمة مؤلفات نيتشه فى بداية القسم الخاص بالنصوص المختارة) .

حول فكره . وأن مشاكله الفكرية هي عناصر هذه الحياة . وهي أشخاصها ، وهي التي كان في وسعها أن تعلو أو تهبط بها . فمثل هذا الشخص الذي كانت مشاكله الفكرية قادرة على أن تثير فيه مختلف الانفعالات التي تثيرها فينا المواقف الحية ، لا يستبعد أن تؤدي به هذه المشاكل ذاتها — في بعض الأحيان — إلى المرض أو الصحة . وفي هذه الحالة يكون المرض نتيجة لفكره الواعي ، لا سبباً في توجيه ذلك الفكر في اتجاه معين . ولنضرب لذلك مثلا : ففي الفترة التي دعاه فيها ڤاجنر إلى حضور أعياد بايرويت Bayreuth[1] . والتي كان نيتشه فيها قد بدأ يكفر بفن ڤاجنر . كان يشعر دائماً بغثيان وصداع أليم . وكثيراً ما كان يعتذر عن الحضور لمرضه . وليس من المستبعد أن تكون هذه الأعراض ذاتها — في مثل هذه النفسية الحساسة الشفافة — « نتيجة » لتقزز عقلي بدأ يشعر به نحو أعمال ڤاجنر . لا سبباً له . بل إن في وسع المرء أن يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك فيرى في جنونه الأخير تعبيراً آخر عن هذه الظاهرة . ذلك لأن الحياة التي تتخذ كل عناصرها من مشاكل فكرية صرف ، لابد أن تعجز عن المضي في طريقها إذا وصلت هذه المشاكل إلى الحد الذي لا يمكنها أن تتجاوزه . والحق أن نيتشه في نهاية فترة تفكيره الواعي ، كان قد وصل في تفكيره إلى حد لا يستطيع أن يمضي بعده خطوة واحدة : فهو قد حلل نفسه ، وحياته . تحليلا عميقاً ، ولخصها كلها في كتبه الأخيرة . وهو قد وصل في تفكيره إلى النقطة التي لا يكاد المرء يتصور بعدها مزيداً بالنسبة إليه : فهو يقف الآن ضد المسيح . وهو يمثل الدعوة الإيجابية إلى الحياة في مقابل الدعوة السلبية إلى التخلي عن الحياة . وحين تصل المشاكل الفكرية — أعني عناصر حياته — إلى نقطة التوتر هذه . يكون الانفجار أمراً محتوداً — وهكذا كان الجنون .

وعلى هذا النحو يبدو الجنون « نتيجة » منطقية لتطور لابد منه .

ولسنا ندعي أن هذا التفسير هو وحده الصحيح ، أو أنه يعلل كل الوقائع ؛

---

(١) مدينة في ولاية بافاريا حيث شيد لودفج الثاني ملك بافاريا مسرحاً خاصاً لأداء مسرحيات ريشارد ڤاجنر الغنائية .

ولكنه لا يبدو مستحيلا إذا فُهمت حياة نيتشه على النحو الصحيح : حياة لا قوام فيها إلا للمشاكل الفكرية ، ولا يستطيع أن يرتفع بها شيء أو يهبط بها شيء ما عدا الأفكار .

وفى ضوء هذه الفكرة ذاتها سوف ندرس بشيء من التفصيل ما نعتقد أنه الواقعة الأساسية فى حياة نيتشه — وهى بطبيعة الحال واقعة فكرية بدورها — وأعنى بها علاقته بفاجنر . ففى هذه العلاقة سوف نجد تأييداً آخر لما نذهب إليه من تركز حياة نيتشه حول مشاكله العقلية وحدها ، إذ أن تقلبات هذه العلاقة ، وما نجم عنها من سعادة أو شقاء أحس بهما نيتشه خلال حياته ، إنما كانت تخضع لنظرة « عقلية » خاصة عند نيتشه ، بحيث لا تبدو تلك الواقعة الرئيسية فى حياته إلا على صورة مشكلة فكرية فحسب .

نيتشه وڤاجنر :

فى نوفبر سنة ١٨٦٨ ، وفى خلال إقامة قصيرة لڤاجنر فى ليبتسج ، قيل له إن هناك شابًّا ألمانيًّا شديد الإعجاب بموسيقاه ، يحفظ مقطوعات عديدة من إنتاجه الأخير (فى ذلك الوقت) وهو « أساطين الطرب Die Meistersinger » ، فأبدى ڤاجنر رغبته فى مقابلة هذا الشاب المتحمس له . وفى الثامن من نوفبر ، تقدم ذلك الشاب لمقابلته وصافحه ذاكراً اسمه « فريدرش نيتشه » .

فى تلك الفترة ، كان نيتشه فى مستهل حياته العقلية ، يشق طريقه بعزم فتى فى الرابعة والعشرين ، أما ڤاجنر ، فكان قد اقترب من نهاية حياته الفنية ، وأتم التعبير عن ذاته أو كاد ، ولم يعد يعرف الهجوم العنيف ولا الثورة الهوجاء ، بل انتهى إلى هدوء ساخر لا يخلو من استسلام ، عبرت عنه « أساطين الطرب » أحسن تعبير . كان الأول لم يزل مغموراً ، لا يعرفه أحد ، وإن يكن شديد الثقة بمستقبله ، أما الثانى فكان اسمه على كل لسان ، ومجده الماضى يكفيه فى مستقبل حياته .

على أن التفاهم سرعان ما ساد بين الرجلين ، ولم تكن الموسيقى وحدها هى

مصدره . بل جمع بينهما الإعجاب المشترك بفلسفة شوبنهور . وبتفسيره الفني للحياة وللعالم . وهكذا تقابل الرجلان مرة أخرى في تريبشن Triebschen في العام التالي ، وتكررت مقابلاتهما في ذلك المكان الذي اتخذه ڤاجنر مهبطاً لوحيه . ووجد نيتشه في ڤاجنر فناناً أحيا آراء شوبنهور النظرية وحققها عملياً ، ووقفت لديه الموسيقى مع الفكر جنباً إلى جنب ، واجتمع الشعر والنغم في دراماته الموسيقية ، على نحو يذكره بما كان في « التراجيديا » اليونانية من فن متكامل. وهكذا كتب نيتشه إلى صديقه إرڤين روده Erwin Rhode يقول « ... إن ما أتعلمه وأراه وأسمعه وأعقله هنا شيء يفوق الوصف . ولتصدقني إذا قلت لك إن شوبنهور وجيته ، وإسخيلوس وبندار ، ما زالوا أحياء » . ومن جهة أخرى أعجب ڤاجنر وزوجته كوزيما بذلك الشاب المتحمس ، ووجداه يفوق في ثقافته وعلمه كل من دخل في دائرة معرفتهما ، وأدرك ڤاجنر أنه في حاجة إلى مثل هذه العقلية الفتية المتحمسة ، التي تستطيع أن تأتي بأقوى الدعامات لآرائه الفنية في ميدان الفلسفة والفكر . وهذا بالفعل هو ما حدث في بداية الأمر : فقد ألف نيتشه كتابه الأول « ميلاد المأساة من روح الموسيقى » ، محاولا فيه أن يهتدي إلى الصلة بين الدراما الڤاجنرية والمأساة الإغريقية ، ويدعو فيه إلى نهضة متكاملة في الحياة الحديثة ، يؤدي فيها فن فاجنر وفلسفة شوبنهور الدور نفسه الذي أداه فن إسخيلوس في حياة اليونان القديمة ، ويحلم بعصر تسوده الغريزة المنطلقة ، وتخفت فيه أضواء العقل الخالص ، الذي أضفى على حياة الإنسان لوناً باهتاً .

وبقدر ما لقي الكتاب في دائرة ڤاجنر من ترحيب ، فإنه أخفق في لفت أنظار الباحثين خارج هذه الدائرة ، إذ تجاهله النقاد تجاهلاً يكاد يكون تاماً ، ووصفه القلائل الذين انتبهوا إليه بأنه « سنتور »[1] مشوه لا وحدة فيه ولا ارتباط . وهذا ما كان يحس به نيتشه ذاته ، حين صرح في كتاب له إلى روده ، في سنة ١٨٧١ بأنه يخشى « ألا يقرأ علماء اللغة ذلك الكتاب لما فيه من موسيقى ،

(١) سنتور Centaure (قنطورس) شخصية خرافية تصورها الأساطير اليونانية في شكل حيوان نصفه الأعلى شبيه بالإنسان ونصفه الأسفل شبيه بالحصان

openkamal.com

وألا يقرأه الموسيقيون لما فيه من علم لغة ، وألا يقرأه الفلاسفة لما فيه من موسيقى وعلم لغة ! » .

على أن التفاهم بين الرجلين لم يدم طويلا ، وما كان له أن يدوم . وكم قيل فى تفسير القطيعة بينهما من تعليلات ، وتعصب كل باحث لرأيه الخاص ، ظانا أنه قد أتى بالتعليل الأوحد . ولكن الواقع أنه لا يُستبعد ، إذا كنا بصدد شخصية معقدة كشخصية نيتشه ، أن يكون لكل من هذه التعليلات نصيب من الصحة .

وأغرب هذه التعليلات ، هو التعليل النفسى . فقد تبين فى نهاية الأمر ، وفى الوقت الذى وقف فيه نيتشه على حافة الجنون ، أنه كان يحب كوزيما زوجة ڤاجنر ، وتصور أنها هى أريان ، وهو ديونيزوس ، فى الأسطورة اليونانية ، وكتب إليها : أريان . إنى أحبك ! ولم تكن إشارته الرمزية فى كتبه السابقة عن أريان وديونيزوس مفهومة من قبل ، ولكنه حين أفلت منه زمام عقله الواعى ، وكشف عن هذا الحب الصامت القديم ، قد أوضح معنى تلك الإشارات على نحو لا يدع مجالا للشك فى أن حبه لكوزيما قد لعب دوراً هاماً فى حياته النفسية . فإذا أضفنا إلى ذلك قوة النزعة الذاتية لدى نيتشه ، وهى النزعة التى تجعله يحكم على العالم وعلى الآخرين تبعاً لشعوره الخاص نحوهم ، لوجدنا أنه ليس من المستبعد على الإطلاق أن تكون كراهيته التالية لڤاجنر تعبيراً غير مباشر عن حبه لزوجته ، أو إحساساً منه — كما صرح فى بعض الأحيان — بأن ڤاجنر لا يستحق هذه المرأة التى لم يصادف بين النساء من تعادلها ذكاء وجرأة . ليس لنا إذن أن نرفض هذا التعليل ، إذ تنهض به فى كتابات نيتشه ذاتها شواهد قاطعة . ولكن ليس لنا فى نفس الوقت أن نعده التعليل الوحيد ، فقد كان لابد من عوامل أخرى تتضافر مع عامل التطلع الخفى إلى كوزيما ، لتؤدى بنيتشه إلى حملته العنيفة على ڤاجنر . وكان لابد من مبررات عقلية أخرى ، يستطيع أن يصرح بها على الأقل ، أو يستطيع أن يبرر بها لعقله الواعى هذا التغير الذى طرأ على شعوره نحو ڤاجنر . فلنمض إذن فى بحثنا ملتمسين تعليلات أخرى لهذه القطيعة .

فى الوقت الذى وصل فيه فاجنر إلى قمة المجد ، ونجح فى بناء مدينة موسيقية كاملة على النحو الذى تخيله طيلة حياته فى بايرويت Bayreuth ، وبدأ يحقق من المشروعات ما كان يبدو له قبل ذلك خيالا واهماً ، كتب نيتشه فى الجزء الرابع من كتابه « خواطر فى غير أوانها » ، مقالاً لخص فيه كل ما كان يجذبه إلى ڤاجنر من قبل ، هو مقال « رتشارد ڤاجنر فى بايرويت » . والحق أن أحدا لم يمدح ڤاجنر ولم يمجده مثلما فعل نيتشه فى هذا المقال . ويبدو أن نيتشه كان ينبه فيه ڤاجنر إلى ما كان ينتظره منه : فقد كان ينتظر تقدماً شاملا وإصلاحاً عامًّا فى كل أوجه الحياة البشرية ، من أخلاق وسياسة وعلاقات اجتماعية ، إذ أن المسرح صورة مصغرة للمجتمع بمختلف مجالاته . وفيه تُقدم لمشكلة الحياة حلول لو أحسن اختيارها لكان أثرها على الإنسانية كلها عظيما . وهكذا تستطيع بايرويت أن تعيد لنا عهد الأولمب ، ويستطيع العبقرى الذى شادها أن يخاطبنا بلغة شاملة لا توجه إلى جماعة أو شعب معين ، بل إلى البشرية كلها . . . على هذا النحو سار نيتشه فى مؤلفه هذا عن ڤاجنر . ولكن هل كان هذا كله مدحاً فحسب ؟ الحق أنه ، كما قلنا ، تعبير عما يتوقعه نيتشه من ڤاجنر ، لا عما قام به ڤاجنر بالفعل . والدليل على ذلك أنه فى نفس الوقت الذى كان فيه ڤاجنر يحتفل بأعياد بايرويت الأولى ، كان نيتشه قد انطفأت حماسته وتبخر إعجابه .

ذلك لأن نيتشه حين اهتدى إلى ذاته ، وعرف الطريق الذى يتعين عليه أن يسلكه ، أدرك أن ڤاجنر عاجز تماماً عن أن يقدم إلى البشرية شيئاً مما يريد هو. لقد كان نيتشه يريد انقلاباً فى الأخلاق ، وفى الفكر ، وفى الفن ، وفى كل ما يقدسه الإنسان الحديث من قيم . فأين ڤاجنر من كل هذا ؟ لقد شاهد نيتشه بعض حفلات بايرويت ، فلم يجد إلا مسرحاً ذا جدران أربعة ، وستاراً يفتح من الجانبين ، وعازفين مختفين ، وموسيقى ممتزجة بالشعر ؛ وهذه كلها تجديدات فنية لا شك فيها ، ولكن أتبدأ من هنا نهضة الإنسان الحديث كما أرادها نيتشه ؟ وأين هم رهبان الفكر الذين كان نيتشه يتصور أنهم سيفدون خاشعين إلى محراب

الفن ؟ أين ذلك الصمت المقدس الذى طالما حلم به . من تلك الجلبة والضوضاء وذلك الغدو والرواح ؟ أين بخور معبد الفن من رائحة الخمر والدخان وعطور النساء التى حفل بها مسرح بايرويت ؟ لقد انتهى نيتشه من زياراته لبايرويت بنتيجة واحدة ، هى أن من المحال أن تشع شمس الإصلاح من ذلك الأولب الزائف . أو أن تبعث الحضارة الديونيزية من بعد حفل لاه كذلك الذى وضع فيه ڤاجنر كل آماله ! ومنذ هذه اللحظة ، يئس تماماً من أى إصلاح يأتى عن طريق ڤاجنر .

وهكذا أصبح الطريق ممهداً للانفصال التام . ولم يبق إلا أن يعلم نيتشه أن ڤاجنر ليس عاجزاً عن بلوغ هدفه الإصلاحى فحسب ، بل إنه يسعى إلى هدف مضاد له . وهذا ما أدركه نيتشه أخيراً : فقد تقابلا بعد بايرويت عدة مرات ، إلى أن كان يوم تريضا فيه معاً على الساحل فى سورنتو Sorrento بإيطاليا ، وأخذ ڤاجنر يشرح له أهم الموضوعات التى تشغل ذهنه فى ذلك الحين . وهى الدراما الموسيقية الجديدة « پارسيفال » . فإذا بها عمل يقدمه ڤاجنر إلى الكنيسة راجياً منها المغفرة والصفح فى نهاية حياته ، وإذا به يقول إنه يجد فى فكرتها هذه لذة لا يجدها فى أعماله السابقة التى كان بعضها يصطبغ بصبغة الإلحاد . وتبينت الحقيقة لنيتشه بوضوح : فها هو ذا ڤاجنر يتبدى أمامه تائباً مكفراً ، يردد آلام المسيح وعذابه ، ويركع تحت الصليب . فى الوقت الذى أراده فيه ثائراً يمجد الحياة ويقلب القيم . بل إن فى الأمر شيئاً أخطر من مجرد كون ڤاجنر مسيحياً ، إذ أن نيتشه على كل حال يحترم المسيحى المخلص ، ولكن الذى آلمه أن يجد ڤاجنر قد انقلب وتدهور إلى هذا الحد . وعلى أية حال فقد ظل نيتشه صامتاً فى ذلك اليوم . وحين انتهى ڤاجنر من حديثه ، خطا نيتشه بعيداً عنه . وانصرف دون أن يجيب . ولم يره بعد ذلك أبداً .

والحق أنه كان من المحال أن يسود التفاهم بين ڤاجنر وبين ذلك الذى أراد أن يكون « عدو المسيح » وأن ينقد كل ما يمت إلى المسيحية بسبب ... فالروح الدينية كانت تثيره على الدوام . وما كانت حريرة الأخلاق السائدة ؛ التى كرس

نيتشه كتباً بأسرها لنقدها ، إلا أنها فى أساسها متأثرة بالتعاليم الدينية ، وبالمسيحية على وجه الخصوص ، وتدعو إلى الضعف والاستسلام . وما كانت حملته على الفلسفات الكبرى إلا لدعوتها إلى مبادئ قريبة من المبادئ الدينية ، كمبدأ الفضيلة العقلية الخالصة عند سقراط وأفلاطون . فأين آراء ڤاجنر المحافظة من هذه الثورة العاتية ؟ إن ڤاجنر ، الذى عبر عن ولائه وإخلاصه للمسيحية تعبيراً صريحاً فى پارسيفال ، كان فى واقع الأمر مسيحياً مخلصاً من بداية الأمر : فلو حللت أية واحدة من دراماته الموسيقية ، لوجدت فيها فكرة التكفير والتوبة تلعب دوراً أساسياً — حتى فى خاتم النيبلونجن Niebelungenring التى خلق فيها ڤاجنر شخصية زيجفريت ، محطم التقاليد الثائر — حتى فى هذه الدراما ، يعود ڤاجنر فى النهاية إلى نغمته المعهودة ، فينادى بالتوبة والخلاص ، ويتوق أخيراً إلى الفناء وإنكار الحياة .

فإذا تركنا أفكار ڤاجنر جانباً ، وانتقلنا إلى موسيقاه ، لوجدنا نيتشه يوجه إليها هى الأخرى حملة عنيفة ، يمكننا أن نلتمس لها تعليلا واضحاً من حالة نيتشه الصحية . ويبدو أن موسيقى ڤاجنر العميقة كانت تسبب له إجهاداً فكرياً عنيفاً ، وكان يحتاج فى تتبعها إلى توتر ذهنى يستهلك من طاقته العقلية قدراً هو أحوج ما يكون إليه . ومن هنا كان نيتشه فى حاجة إلى موسيقى خفيفة راقصة ، تجدد نشاطه وتفكيره ولا تستهلكهما . ولقد صرح نيتشه بذلك حين قال « إن كل ما هو جيد خفيف ، وكل ما هو إلهى يسير على أرجل دقيقة حساسة » . وهذا هو ما وجده نيتشه فى ألحان بيزيه Bizet ، الذى كانت أوبراه المشهورة « كارمن » بمثابة كشف عالم جديد بالنسبة إلى نيتشه . فأين تلك الرقة الرفيعة من تعقد ڤاجنر الذى أدرك أن موسيقاه لا يمكن أن تأخذ طريقها إلى الأذهان مباشرة ، فأخذ يخرج الكتب واحداً تلو الآخر لتبريرها وشرحها ؟ لقد كان نيتشه ولا شك محباً للحن Mélodie ، وكان يؤثره على التناغم المعقد الذى سيطر على موسيقى ڤاجنر . كان يريد فى الموسيقى ، كما قال ، شيئاً يمكن تصفيره ، وكان يرى الألمان جميعاً عاجزين فى ميدان اللحن . ولاشك أن أقوال نيتشه فى هذا الصدد

إنما تخضع لمنطق التبرير فحسب ، بدليل ما صرح به فى كتابه الأخير من أن مواجهته فن ڤاجنر بموسيقى بيزيه لا ينبغى أن تؤخذ على محمل الجد . وعلى أية حال ، فقد أراد نيتشه بكل هذا النقد شيئين: أولهما أن يتابع فى مجال الموسيقى حملته على ڤاجنر فى مجال الفكر ، إذ كان عدم التوافق فى الأفكار هو الأصل ، وثانيهما أن يبرر الضعف الطبيعى الذى انتاب أعصابه ، والذى جعل هضم موسيقى ڤاجنر أمراً ثقيلا بالنسبة إليه . ودليل ذلك قوله فى كتاب العلم المرح « إن دوافعى ضد موسيقى ڤاجنر دوافع عضوية . . . فما أشعر به فعلا عند ما أستمع إلى تلك الموسيقى ، هو العجز عن التنفس بسهولة. ولذا تثور أقدامى وتغضب ، إذ أنها فى حاجة إلى الإيقاع والرقص والمشية المنتظمة ، وكل ما ترمى إليه من الموسيقى هو قبل كل شىء ذلك الطرب الذى ينبعث من انتظام المشى والخطو والقفز والرقص . وفضلا عن ذلك ، ألا تحتج معدتى وقلبى ودورتى الدموية وأمعائى بدورها ؟ . . ما الذى يريده جسمى حقًّا من كل موسيقى ؟ إنه يريد أن يصبح خفيفاً ، وكأن كل الوظائف الحيوية فيه تزداد سرعة ونشاطاً بفعل إيقاع خفيف جرىء منطلق واثق من نفسه. » وهكذا تنعكس حالة نيتشه الصحية على هذا النقد بوضوح ، ويبدو إيثاره لإيقاع بيزيه المنتظم على تناغم ڤاجنر المعقد أمراً هين التفسير بالنسبة إلى من كانت لديه أدنى فكرة عن وظيفة الإيقاع المنتظم فى تخفيف التوتر العصبى .

ولعل القارئ قد لاحظ من خلال تطورات تلك العلاقة التى تمثلت فيها أهم وقائع حياة نيتشه ، تردد ظهور تلك الصفة التى قلنا من قبل إنها أهم ما يميز حياته ، وأعنى بها تركز هذه الحياة حول المشاكل الفكرية ، واتخاذها عناصرها ومقوماتها كلها من هذه المشاكل . ذلك لأن الخلاف بينه وبين ڤاجنر — وهو الخلاف الذى كان له أبلغ الأثر فى تطور حياته — إنما كان خلافاً حول « أفكار » قبل كل شىء . ولا جدال فى أن نيتشه لو وجد لدى ڤاجنر من الأفكار ما يلائمه ، لخفت حملته على موسيقاه إلى حد بعيد .

وتبدو تلك الصفة الأساسية فى حياة نيتشه ، أعنى سيطرة الأفكار الخالصة لا الواقع العينى ، على هذه الحياة سيطرة تامة — تبدو تلك الصفة واضحة فى

حملته على ڤاجنر خلال أعياد بايرويت . لقد كان يطمع من ڤاجنر فى أن يأتيه بالحقيقة كاملة صريحة . كان يريد منه أن يصبح فيلسوفاً ذا دعوة عقلية مثله ، وأن يحارب من أجل الأفكار الجديدة حرباً مباشراً . ولكم كان نيتشه ساذجاً حين تصور أن الفن وسيلة لإثبات فكرة فلسفية بطريق مباشر ، وسبيل يكفى وحده لبعث نهضة إنسانية شاملة . إن غاية ما يصل إليه الفنان هو أن يشير من بعيد ، ويلمح ، ويرمز . وحين ينقلب الفن إلى خطب منبرية ذات مداول مباشر ، فإنه يفقد ماهيته ذاتها ، مهما كان نبل الدعوة التى يدعو إليها . وليس معنى ذلك أن على الفن أن ينطوى على ذاته ، أو يكتفى بالطابع الشكلى الصرف ، ويخضع لهذا الشعار الزائف : الفن لأجل الفن . . . فلكل فنان صادق رسالة ، ولكنه لا يستطيع وحده أن يصلح الناس إصلاحاً شاملا . أو أن يبعث نهضة جديدة بفنه فحسب . بل كل ما يمكنه أن يفعله هو أن يتضافر مع غيره فى مجهود مشترك ، يكون نصيبه منه منحصراً فى الحدود التى لا يتعداها التعبير الفنى . غير أن نيتشه « صُدم » حين وجد أن بايرويت لم تكن إلا مسرحاً معتاداً كسائر المسارح ! فما الذى كان ينتظره إذن ؟ أكان يريدها منبراً يدعو فيه ڤاجنر إلى الحياة الجديدة ؟ وماذا كان يملك من وسائل لهذه الدعوة ؟ ألم يكن التعبير الموسيقى والشعرى ، فى حدود الإمكانيات المسرحية ، هو وسيلته الوحيدة من حيث هو فنان ؟ وهل يسمح له واقع هذه الحياة بأن ينتقى مستمعين « مختارين » تتأثر نفوسهم بفنه المتكامل فينتشروا فى الأرض ليبشروا بالحياة الجديدة ؟ لا شك أن مطلب نيتشه هذا كان وهماً وخيالاً إن دل على شىء فإنما يدل على أن الفكرة الخالصة ، التى لا تعترف بحدود الواقع ولا تخضع لمقتضياته ، تحتل جميع أركان نفسه ، ومن خلالها وحدها يقوّم العالم ويصدر حكمه على الناس .

obeikandl.com